تصميم الغلاف: أسماء المقفري الغرسي

وفاء

نجوى سعيدي

رواية

منارة الأفكار
للنشر الإلكتروني

جميع الحقوق محفوظة @ منارة الأفكار للنشر الإلكتروني

أغسطس 2015

وفـــــاء

تأليف: أ. نجوى سعيدي

رسم غلاف: أ. أسماء الصخري

الموقع الإلكتروني للدار

/http://manaretalafkar.blogspot.com

صفحة الدار

https://www.facebook.com/pages/%D8%AF%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B4%D8%B1-%D9%84%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1/10429522423824 12

رواية

وفـــــاء

نجوى سعيدي

تدقيق لغوي:

فاطمة الزهراء علاء

الإهداء

إلى من قتلتني عيونه عشقا . .

إلى من لا أعرف أين هو الآن . .

إلى من غاب دائما عن بصري ولم يغب يوما عن بصيرتي . .

أعلم أننا لن نلتقي لكن كن على يقين بأنني دائما وأبدا معك . .

قل لصغارك: "أحبّتني امرأة لم أقدرها حق قدرها" . .

قل لبناتك: "إيّاكن أن تحبين رجلاً مثلي . . فقد أحبتني قبلكن امرأة تركتها على حبال الشوق معلقة" . .

إليك يا من بالرغم من كل ما فعلته بي . .

كتبت من أجلك رواية عليها أنت الآن تسير . .

لكنني لم ولن أتمنى أن ينتهي بك نفس المصير . . . . .

البداية

ولدت ذات صباح في اليوم الفاصل بين أواخر الربيع وأوائل الصيف سنة 1995 ...

كانت بهجة لعائلة حرمت من الأطفال لمدة عشرين سنة تقريبا وكان لها أخوان من أبيها الذي توفيت زوجته الأولى لتتربع بعدها أمها عرش قلبه.

لكن مع تقدم الوقت كثرت المشاكل في ذلك المنزل المسالم لتزايد احتياجات الرضيعة أمام عجز الأب المتقدم في السن والعامل اليومي بأجور بسيطة مما أثار حفيظة الأم الكثيرة التشكّي لعجز زوجها أمام جسامة المسؤولية لكن هذا الجو المليء بالمشاحنات لم يمنع "وفاء" من التميز في دراستها حتى صارت قدوة لكل أصدقائها ومحط إعجاب كل معلميها. حتى مدير المدرسة الابتدائية التي زاولت فيها دراستها أبدى إعجابه بنباهتها وسرعة فهمها وما إن علم بظروف عائلتها المادية حتى سعى أن يساعدها عبر تقديم بضع إعانات وهبات حتى أنهت دراستها الابتدائية هناك ... كانت مسيرة حافلة بالنتائج الممتازة وبالجوائز في ختام كل سنة دراسية لم يستطع أي تلميذ وقتها أن يحصد ما حصدته رغم قلّة ذات اليد والمناخ الصعب الذي تعيش فيه.

حان الآن وقت أن تنتقل "صغيرتنا" من دراستها الابتدائية إلى تلك الإعدادية ولم يدر في خلد وفاء بأن حياتها ستتبدل خلالها...

حب غير متوّقع

في المدرسة الإعدادية حصل ما لم يكن في الحسبان.....

بدأت القصة بدخول وفاء يوم الترسيم ولشدة وجلها وخجلها كانت تمشي مطأطئة الرأس إلى أن ارتطمت به ..... كان شابّا فارع القامة بديع الملامح تفيض روحه خفة ونشاطا رفعت رأسها نحوه في خجل وقالت له: "أنا آسفة" .. فابتسم قائلا: "لا بأس" ....

كانت ابتسامته تأسر القلوب حقا فكيف لها أن تفلت من شباكها ؟

ظنّت أنه يكبرها سنّا لأنها رأت في عينيه نظرة شخص واثق من نفسه ذا خبرة ومعرفة قديمة بالمكان الذي يتواجد فيه أضف إلى ذلك طوله وبنيته الجسدية كانتا دافعا آخر لتقول بأنه تلميذ مرحلة نهائية يكبرها على الأقل بسنتين لكن ما إن ولجت قاعة الدراسة بعد أسبوعين من تلك الحادثة حتى رأته جالسا في المقاعد الأمامية صحبة نفس الشاب الذي كان معه يومها والذي لم تعره أي اهتمام لأن ذلك "الطويل" كان مغناطيسيا جذب نحوه كل اهتمامها....

"أيعقل أن يكون زميلي في الدراسة ؟" تمتمت في حيرة وسرعان ما بحثت بعينها عن مقعد شاغر فما وجدت غير بضع مقاعد في الصف الأمامي فاختارت واحدا محاذيا للحائط.

بدأ الأستاذ الحصة بابتسامة ومعها بعض عبارات التهنئة لوصولهم المرحلة الإعدادية ثم مر إلى تفسير أول درس وسرعان ما سألهم حول بعض مكتسباتهم فكان "الطويل" أسرعهم جوابا لذكائه ولتخطّيه عقبة الخجل فهو يتصرف بتلقائية جعلت أستاذه يعجب به ويستفسره عن اسمه قائلا: "ما اسمك يا شقي ؟"

"أمين ... اسمي أمين يا سيدي"

"حسنا يا أمين أجبني على هذا السؤال إن استطعت .... السؤال موجه للجميع لكنه تحدٍّ خاص لك يا مشاغب ولنرَ هل أنت ذكي بالقدر الذي تظهره أم لا"

كان باديا في كلام الأستاذ أنه أعجب به واعترف بذكائه لكن أراد أن يثبت ذلك بسؤال تعجيزي وقد استفز ذلك وفاء فقد كانت تملك الإجابة في أغلب الأحيان لكن خجلها منعها من الإفصاح وجاء هذا السؤال كطوق نجاة بالنسبة لها فالإجابة ستكون كتابيا لا شفويا وستبرهن بأنها لا تقل ذكاء عن ذلك المتعجرف الطويل دون أن تنبس ببنت شفة.

مرّ الوقت المحدد للإجابة على السؤال فقام الأستاذ من مكانه ليجول حول التلاميذ الذين لاحظ بأن أغلبهم لم يجيبوا عنه .. وصل أخيرا للصفوف الأمامية وبدأ جولته من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وفي المنتصف توقف عند أمين ناظرا لإجابة مقتضبة كتبها بكل اعتزاز .... كانت إجابة صحيحة لكن لشدة اقتضابها ابتسم الأستاذ ولم يقل شيئا فمجرد

الوصول إلى تلك المرحلة يعتبر إنجازا خياليا لتلميذ في السنة الأولى إعدادي ولم يسبق له أن رسب فيها (حسب ما أشار دفتر المناداة الموضوع فوق مكتبه).

أراد الأستاذ أن يكمل سيره نحو بقية التلاميذ متأكدا بأنهم لن يختلفوا كثيرا عن زملائهم (عدا أمين) لكنه فوجئ في أقصى اليسار بورقة ممدودة بيد مرتجفة تحمل إجابة مفصّلة لسؤاله ..... رفع الورقة نحوه يتأملها لم يتوقع وجود نابغة أخرى في قسمه.

حوّل نظره نحو صاحبة اليد المرتجفة قائلا: "ما اسمك يا فتاة ؟"

"اسم .... اسمي .. وفاء سيدي"

"إجابتك جد رائعة يا وفاء ... أتمنى أن تشاركي أصدقاءك فيها .. هل هذا ممكن ؟" ومد إليها ببضع قطع من الطباشير في إشارة منه بأن تكتب ما في الورقة على السبورة .. ثم التفت إلى أمين قائلا: "هكذا تكون الإجابة على هذا النوع من الأسئلة يا شقي لكنني منبهر بأنكما وصلتها إلى الحل بينما عجز البقية"

عجز أمين عن تصديق أن تلك الفتاة التي رآها قبل أسبوعين بهالة الخجل تلك قد نافسته وربحت الرهان رغم ذلك حاول تتبع ما تخطّه على سبورة اللوح تلك علّه يتصيد ولو خطأ يعيد له ما انكسر من غروره لكنه للأسف فشل .. كان ذلك بمثابة الشعلة التي أوقدت

الحرب ... حرب دامت رحاها حوالي ثلاث سنوات ... حرب جعلت نتائجهما من أحسن نتائج المدرسة الإعدادية في كل ثلاثي بل كانت في ارتفاع دائم.

لكن بالرغم من ذلك شعر بإحساس غريب تجاهها مزيج من الحب والإعجاب لم يتبيّن ماهيته إلاّ مع مرور الزمن .... تُرجم ذلك الإحساس بتلك النظرة الفاحصة التي وجهها نحوها وهي في طريقها إلى مقعدها والتي ما إن تفطّنت بها حتى زاد ارتباكها وخجلها.

"ماذا يريد مني الآن ؟ لماذا يحملق فيّ هكذا ؟" أسئلة دارت في خلدها بعدما التقت أعينهما للمرة الثانية منذ أن عرفته ... لم تكن تعلم بأنه وقع في شراكها هو الآخر.

و من الغد كان الجميع مصطفّين أمام القاعة في انتظار أستاذ العربية ... كان الجميع هناك ألّا هو. تشتت تفكير وفاء لهذا التأخير وبدأ الشك يساورها بأنه سيتغيب بسبب الأحراج الذي سبّبته له بالأمس فعاتبت نفسها على كسر شوكة غروره ثم سرعان ما تذكرت أمرا .... "تبا لماذا أهتم لأمره ؟ ؟ أنا لا أعرف منه الا أسمه فلما أنا محتارة هكذا لأجله ؟ ؟" و ما أن أنهت أسألتها حتى أطل الأستاذ بقامته الفارعة حاثّا التلاميذ على الدخول .

و بعد أن استقرت في مكانها المعتاد ، أخرجت من محفظاتها أدواتها المدرسية لكن و ما أن همّت بسحب كتابها المدرسي حتى تجمدت يدُها و شحبت ملامحها .

عند الباب كان شاب طويل يلهث بعد أن أعياه الجري طالبا من الأستاذ الأذن بالدخول ... فعلا لم يكن غيره هو .. و ما أن التقت نظاراتهما حتى عاد سيل الدم يتدفق في جسمها مبرزا حمرة في أعلى وجنتيها فسارعت إلى سحب كتابها و أخذت تورّقه دون أن تستقر عيناها في أي كلمة منه .

أما هو فبعدما أذن له الأستاذ بالدخول أكتشف بأن لا مكان شاغر في القاعة إلا واحدا فقط . انتبهت وفاء إلى الشخص الواقف حذوها و ظنّته أستاذها فلم تعره اهتمامها لكن صوتا مألوفا و غير متوقع جعل كل حواسها تستنفر كأنما هي مدينة في حالة طوارئ " أيمكنني الجلوس ؟"

"طبعا .... أقصد ... أقصد أجل ... أجل يمكنك الجلوس "

فأبتسم أمين و وضع محفظته ثم جلس بجوارها أما هي فلم تستطع أن توفق قلبها عن الخفقان لعل أستاذها قد ميّز ذلك و هو الجالس على بعد ثلاثة أمتار منها فهل يغفل أمين الذي يحاذيها عن ذلك ؟

بدأت الحصة كما كان متوقعا من أستاذ يحضر لأول مرة في السنة الدراسية الجديدة بحصة تعارف عرفت خلالها وفاء كل ما تحتاج معرفتها عن الطويل الجالس إلى جنبها و التي أحست مع كل كلمة ينطقها بزفيره يلفح وجهها لشدة كلماته و ثقته العالية بنفسه.

"يبدو أن حادثة الأمس لم تؤثر فيه سلبا" هذا ما دار في خلد وفاء بعد أن أنهى كل منهما التعريف بنفسه.

أستهل الأستاذ درسه بحديث مطوّل عن الحرب و أراد اختتامه بفقرة انشائية يعطي فيها كل تلميذ وجهة نظره تجاهها . و لأول مرة رغم تمييزها في العربية أحست وفاء بأنها سلبت من موهبتها... بأن القلم لا يجاريها و بأن أفكارها كلها تجري في اتجاه واحد كأنما هي في نهر في أخره شلال و لم يكن الشلال سوى ذلك المتنصب بجانبها الماسك بقلمه في ضجر يراقصه في الهواء تارة و يخطُّ به بضع كلمات أغلبها خاطئة تارة أخرى . تفطنت وفاء الى ذلك فأبتسمت واضعة يدها على موضع الخطأ في جملته " المفعول به يكون دائما منصوبا"

"عفوا ... ماذا قلت ؟ ؟"

" المفعول به يكون دائما منصوبا .... يعني لا يجوز أن نقول 'الحرب قتلت الشعوبُ' بل 'الحرب قتلت الشعوبَ' "

"أه ... شكرا لتنبيهي .... يبدو أنك متميزة في العربية .."

" يمكن أن تقول بأنه المجال الوحيد الذي أعشقه حقا .. و أنت ماذا تحب ؟"

"الفيزياء ... فعلا أنه كوكب كبير مليء بالأسرار و العجائب ... أتمنى حقا التخصص فيه"

وقطع الحوار صوت الأستاذ يحثهم على أنهاء فقاراتهم الأنشائية قبل أن يدق الجرس.

" ألم تنهي فقرتك بعد ؟ ؟ لما لا تشاركيننا أيّاها ؟"

"حسنا تنقصني بعض اللمسات الأخيرة .... ثم ....هاااا قد أنتهينا"

"جيد ... هيا لا تخجلي كلنا أذان صاغية"

"هههه شكرا لك" قالتها وفاء و هي ترفع أصبعها لأخذ الكلمة حامدة الله لهذا الحوار المفاجئ و كان لها ما أرادت فقد أستمع لها الأستاذ و أشاد بقوة عباراتها في وصف مخلّفات الحرب بل و قرر مناقشتها في بعض النقاط التي تضمنتها فقرتها قصد أرباكها فما وجد أمامه الا أنسانا واثقا و عارفا بقيمة كل كلمة كتبها .

أما أمين فقد بقي فاتحا فاه مدة من الزمن كأنما هو في حضرة فيلسوف لم يستوعب من كلامه شيئا . و في الأستراحة كان الجميع مشغولا بما في يديه قصد أنهائه بسرعة قبل أنطلاق الحصص المسائية وفجأة تعالت أصوات الصياح داخل الباحة رافقتها صوت ضربات متتالية فنهض الجميع لأستجلاء الأمر الا وفاء الذي كان عليها أن تنهي أفطارها و تقصد المكتبة لشراء أدواتها المدرسية الناقصة و ما أن همت بذلك حتى نادتها أحدى زميلاتها في القسم فعدلت عن رأيها و قررت أنتظارها .

و ما أن وصلت حتى قالت لها لاهثة " أتعلمين من كان في الشجار الأن ؟ ... أنه ... أنه أمين .... ذلك الذي جلس حذوك هذا الصباح.."

و ما أن أنهت الفتاة جملتها حتى انتفضت وفاء و سارعت نحو مكان الشجار فوجدت شخصا قوي البنية طويل القامة واقفا شاتما و متوعدا وعلى وجهه علامات الغضب الشديد و عند قدمه أمين و هو يمسح الدماء السائلة من فمه من أثر اللكمات التي تعرض لها .

"أنا الملك هنا .... لا أحد يمكنه أن يرفض لي طلبا ... هل كلامي واضح ؟ و هذا أمامكم ليكون عبرة لمن يعتبر ... " قالها الشاب في زهو و تعال كأنما فاز في حرب فتح الأندلس أو ما شابه و أتبعها بضحكة مقرفة تنم على أنه من "البلطاجية" الذين يسرقون الناس الضعفاء أموالهم تحت طائلة التهديد .

رن جرس المدرسة معلنا التحاق التلاميذ بصفوفهم فتفرق الجمع كل منهم يبتغي قسمه قبل أن ينال وابلا من التوبيخ من قبل المدير . أما أمين فقد ظل كما هو ملقى على الأرضية يكاد الشرر يتطاير من عينيه لشدة غضبه . أسرعت أليه وفاء تحاول إسناده ليقف من جديد فرأت عدة كدمات في يده و جرح في وجهه من قوة الارتطام .

"لما فعل بك كل هذا ؟"

"طلب مني تمكينه من مبلغ مالي لشراء سيجارة فرفضت و هذه نتيجة رفضي"

" تبا له ... يا له من صعلوك .... أرى أن تتحاشى الحديث معه أو الاقتراب منه فهذا أحسن"

"أتحاشى ؟ ؟ و هل أنا فتاة جبانة لأفعل ذلك .... سترين سأرد الصاع صاعين أن شاء الله و لسوف ألقنَّه درسا لن ينساه أبد الدهر"

" لا يا أمين لا تتهور ... دعك منه ... أنت لست ندا له ... أخشى عليك من بأسه"

و فجأة تسمرت ملامح وفاء لتردد صدا قولها في أذنها ... ماذا قلت للتو ؟ هل قلت "أخشى عليك" ؟ يالي من حمقاء ... كيف تجرأت على ذلك . و تفطن أمين لذلك فأبتسم و شكرها و طلب منها الالتحاق بالصف قبل أن يطردها الأستاذ للتأخر .

" وأنت ؟ ؟ ألن تأتي"

"أنا ذاهب إلى الصيدلية لأشتري ضمادات لجراحي فهي تؤلمني كثيرا "

"حسنا أتسمح لي بمرافقتك ... فأنت لازلت تعرج"

"والحصة ؟ ؟"

"حصة تعارف ... لا أظن أن يسجلني الأستاذ متغيّبة حتى قبل أن يعرفني"

أبتسم أمين و شكرها مجددا فما كان منها إلا أن مدت له يدها ليرتكز عليها أثناء المشي.

و بعد أن اشتريا ما يلزم من الصيدلية عادا إلى المدرسة الاعدادية و بحثا طويلا على قاعة شاغرة ليرتاح فيها أمين و يعقم جراحه فوجدا واحدة في أخر الرواق .

جلس أمين على أول مقعد وجده بعدما أخذ منه التعب كل مأخذ أما وفاء فقد جلست على بعد عدة أمتار منه تراقبه و هو يضع الضمّادات بكل حرص فجأة توقف ساخطا فسألته وفاء" ما الذي جرى ؟ لماذا توقفت ؟" فأشار بخجل الى ظهره قائلا " أظنُني أعاني بعض الجراح هنا أيضا ... لكن .... لكن .."

"لكنك لا تستطيع أن تضع الضمادات على جراحك بنفسك ..... حسنا دع عنك هذا .... أستدر و أرفع القميص قليلا فحسب " ففعل ما أملته عليه بالظبط أما هي فما أن أمسكت بالضمادة لتضعه حتى أرتعشت يدها لملمس جلده البارد ... لطالما عشقت الرجل البارد فبروده يثيرها .

حاولت بكل قوتها أن تداري ما في نفسها لكن أمين تفطن أليها و أحس برعشة يدها و أرتفاع حرارتها و زفيرها الذي صار و كأنما هو خارج من فوهة بركان و تسارع نبضها لكنه كتم الأمر بحرفية بالغة و ما أن أنتهت حتى أبتعدت مسرعة الى حيث كانت جالسة فنهض أمين و أتجه نحوها و جلس قبالتها فأحس بقلبها يثور كأنما يريد الأستقلال عن بقية جسمها من شدة خفقانه فأمسك بيدها و وضعها على صدرها قائلا "حاولي أن توقفيه ... فأنا لست شبحا أو ما شابه .... لقد منحك تدفق الدم توهجا غير عادي .... لقد صرت ... لقد صرت جذابة نوعا ما ..... لكن يجب أن توقفيه لأستطيع فعل ذلك"

"فعل ماذا ؟"

"فعل هذا"

و توقفت الدنيا من حولهما في تلك اللحظة و توقف الزمن فكانت عشر ثوان بعشرة عقود فتحا بعدها أعينهما و لأول مرة يركز كل منها في عيني الأخر و هدأت زوبعتهما لتعلو زوبعة أخرى .... أنه جرس الحصة التالية.

دخلا الحصة الأول منتشي بما ناله و الأخرى مازالت غير مصدقة لما حدث منذ قليل . كان سريعا كومضة البرق لكنها خلفت في نفسها ضجة كهزيم الرعد .

الفراق

مر على تلك الحادثة ثلاث سنوات ..... ثلاث سنوات كبرا خلالهما وكبر حبهما واحترامهما لبعضهما البعض دون أن يتجرأ أحد على أن يخبر الطرف الآخر بما تحدثه نفسه.

وحان موعد تسليم جوائز نهاية السنة الدراسية الأخيرة لهما معا فقامت وفاء بارتداء أجمل ما عندها من ثياب وتعطرت وقصدت مكان الحفل وكان هو قد سبقها ببضع دقائق.

جلس الجميع ينتظرون جوائزهم ... مر الأول والثاني والثالث وجاء عليه الدور قبلها فصعد إلى المنصة بقفزة رشيقة وكانت وفاء تنظر إليه .. إلى طوله الفارع الذي طالما أسرها .. إلى شعره المائل للاصفرار .. وإلى ابتسامته المحمّلة بكل معاني الحب والود والحنان .. لم تفق من غفلتها إلاّ على صوت المدير يدعوها هي الأخرى لتتسلم جائزتها وفي الطريق اعترضها من هام قلبها بحبه فسلّمت عليه فقبض على يدها وضغطها ضغطة خفيفة دوّت في نفسها كزلزال هز كل جوارحها حتى لم تتبين عبارات التهاني بالنجاح التي نزلت كشلال من بين شفتيه فطارت إلى المنصة وأخذت جائزتها وغادرت مسرعة علّها تستنشق بعض الهواء النقي بعد أن حبس التقاء أيديهما أنفاسها.

أثناء خروجها تمكن هو من أن يلقي نظرة شاملة عليها كأنما يودعها وطال تأمله حتى بعدما خرجت من أمامه .. لعله رسم صورة لها في خياله وظل يتأملها .. أفاقه صراخ صديقه ذاك

الشاب الذي كان معه يوم التقى بوفاء لأول مرة .. ثاب إلى رشده أخيرا فتفطن بأن القاعة صارت شبه خالية إلاّ من بضع أساتذة وعمال التنظيف.

لم تنم هي ليلتها .. لا تعلم هل تفرح لتلك الإشارة التي تلقتها منه أم تحزن لأنها موقنة بأنه كان آخر يوم لهما معا .. سرحت بخيالها مرات ومرات تستعيد كل ما حدث لها خلال كل تلك المدة .. تشكر حظّها لأنه جمعهما معا لمدة ثلاث سنوات وتلعنه لأنه فرقهما .. كم هو مؤلم أن ينتابك إحساس بخسارة شيء لم تمتلكه أصلا لكن امتلاكه كان حلمك..

أمّا هو فقد حاول إقناع نفسه بأنها نزوة جديدة من نزواته ... نزوة سينساها مع الوقت ... فلو كانت تحبه لأخبرته .... هكذا قال عقله لكن قلبه من شدة خفقانه كان يتوقف عن النبض كأنه يعترض على القرار الأحمق الذي أصدره عقله.

"هو لن يقول أنه يحبها سيستمر في التلميح ... وهي شرقية لن تبوح له بحبها المتبادل قبل أن يبوح هو" هذه بضع كلمات قرأتها لدى الكاتبة أحلام مستغانمي وما أقربها لوصف ما يمر بهما وانتهت القصة بأن أقنع كل طرف نفسه بنسيان الآخر لكنهما لم يعلما بأن ما فعلاه كان مثل وضع رماد فوق الجمر الملتهب ما إن تمر عاصفة ما بعد اللقاء حتى يتطاير الرماد و يزداد اللهب توهجا واشتعالا وهو ما حصل فعلا بعدما كاد ييأس كل منهما.

الاعتراف

حان موعد انطلاق السنة الدراسية الجديدة ... هي جديدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى فهي السنة الأولى في المرحلة الثانوية وهي أول سنة فراق بين الحبيبين.

كان الاثنان يتصلان ببعضهما من وقت إلى آخر بداعي "الصداقة" وما يعلم ما في القلوب إلا خالقها .. خلال تلك السنة كوّنت وفاء مجموعة من الأصدقاء كان بينهم فتاة تدعى "رشا" و قد كانتا متلازمتين دائما.

وذات مرة اتصل أمين ليسأل عن أحوالها وكانت برفقة رشا فشعرت بالخجل وبالرغم من أن رشا لم تتبين رقم المتصل إلا أن ارتباك وفاء جعلها تنهض قائمة وهي تقول: "أجيبي ... سوف أذهب إلى الرفاق لنتحدث في موضوع حفلة نهاية السنة" فنظرت إليها وفاء في امتنان .. وما إن خطت رشا بضع خطوات حتى رفعت وفاء السماعة فجاءها صوته قائلا:

"أهلا ... كيف الحال ؟"

"بخير والحمد لله ... كيف حالك أنت ؟"

"الحمد لله ... سأجتاز امتحان الرياضيات بعد قليل ... أردت.... أردت أن أسمع صوتك قبل ذلك"

ازداد خفقان قلبها وقالت وهي تحاول السيطرة على نبرة صوتها لكي لا تفضحها: "وفّقك الله ...."

"شكرا جزيلا لك."

في هذه الأثناء سمعت صوت فتاة خارجًا من الهاتف تنادي بأعلى صوتها: "أمّون تعال تعال سأريك ما وجدت منذ قليل في حديقة المعهد ..."

اعتلتها حمرة شديدة زادت من جمالها .... لكن هذه المرة لم تكن حمرة خجل بل كانت مزيجا بين غضب وغيرة فصرخت في الهاتف: "من هذه التي تناديك ؟ ؟"

"إنها زميلتي في الدراسة .... أظنها وجدت حلزونا أو ما شابه .... لا تهتمي لها."

"كيف لا أهتم و أنت....." وفجأة توقفت عندما أدركت هول ما كانت ستقوله.

"أنت ماذا ؟ ؟....." قالها أمين بشغف كان ينتظر تلك الكلمة لسنوات وعندما كانت قاب قوسين أو أقل عن نطقها ألجمها الحياء مجددا ... آخ منها آآآآخ .. خجلها يأتي دائما في غير محلّه ولو لم تكن كذلك لما خسرا كل هذا الوقت في انتظار اعتراف غبي من هذه الناحية أو تلك.

"لا شيء يا أمين ... لا شيء ... عندما أظهر لك غيرتي ذكرني بأننا أصدقاء ... أستودعك الله ... اعتن بنفسك." قالت هذه الكلمات في سرعة من شدة الغضب حتى عجز أمين عن فهم

أغلبها .... لكنه تفطن إلى كلمة "غيرة" .... ماذا تفعل هذه الكلمة بين تلك السطور ؟ ؟!

لماذا غضبت وفاء ؟ ؟! أسئلة حرمته ليلتها من النوم ... لماذا تصر إلحاحا وتلح إصرارا على أن لا تعترف بحبها له ؟ ؟

أما وفاء فقد ظلت بعدما أغلقت الخط ترتجف من شدة الغضب إلى أن جاءتها رشا التي بادرتها بالسؤال بعدما رأت حالتها تلك: "من كان على الخط يا وفاء ؟"

"كانت واحدة من صديقاتي القدامى لم أرها منذ زمن طويل."

"وهل لمكالمة صديقتك كل هذا التأثير عليك ؟"

"وما هو هذا التأثير ؟" صرخت وفاء في دهشة..

"لقد كنت أراقبك لقد احمر وجهك مرارا وتصبّب جبينك عرقا ثم هام خيالك بعيدا .... ثم ما لبثت أن عاودتك الحمرة مرة أخرى ثم سمعتك تصرخين وأخذتك الرجفة ... أصدقيني القول يا بنت."

"الحقيقة المكالمة ليست من صديقة .... بل من صديق .... صديق أقرب إلى الحبيب لكنني أرى أنه لم ولن يعيرني أي انتباه ... أموت في اليوم ألف مرة بينما هو هناك كالصنم لا يشعر بشيء ..."

"من هو ؟ من أصدقاءنا ؟ هل لي سابق معرفة به ؟"

"أمين .. زميلي في الدراسة في المرحلة الإعدادية"

"مممم عرفته ... سأصدقك القول ... إنه متعدد العلاقات لا تأمني له."

"كثرة علاقات الرجل دليل على فشله في احتواء واحدة."

كانت تلك أكثر العبارات صدقا فقد كانت فعلا تصف أمين بالتدقيق ... فقد تعددت

علاقاته بالكثير من الفتيات ... لكنه لم يكن مرتاحا مع أي منهن.

أنقذني ... إنني أتألم

مرت سنوات على تلك الحادثة وشاءت الأقدار بأن يجمعهما نفس المعهد .. لكن بضعة أيام فقط كانت كافية لتنفض ذاك الرماد المتناثر على الجمر المتّقد .. بعدها بالضبط عادا غريبين كما كانا قبل سبع سنوات .. فقد اتصلت به ذات يوم فوجدت رقمه خارجا عن التغطية فانشغل بالها .. سألت أجواره وليتها ما سألتهم فقد سمعت منهم ما لم ترد سماعه فقد أخبرها أحدهم بأن أمين وعائلته انتقلوا للعيش في تونس العاصمة فحزنت كثيرا ودخلت في إضراب عن الأكل والشرب لمدة أسبوع تقريبا حتى مزاجها تعكر بصفة غريبة .. كان هو الدافع الوحيد لها في هذه الحياة .. كافحت من أجله ... دخلت عالم الكتابة منذ نعومة أظفارها من أجله (وهنا تعرفت عليها) ... تفوقت من أجله فقد أسرّت لي مرة بعد نجاحها في كتابة روايتها الأولى رغم صغر سنها بأنها لم تكن لتنهيها لو لم يكن هو بطلها فقد كانت تراه دائما معها كانت تعيش كل دقيقة من عمرها معه وله .. كانت تراه حين تكتب دروسها فتتعمّد تحسين خطّها كأنما تكتب خطابا غراميا له .... كانت تراه وهي سائرة في الطريق فتتأنق في مشيتها ... تراه في القسم فتزداد حماسا.

كانت تراه بعين خيالها في كل مكان تذهب إليه .. ها قد شاءت الأقدار أن تجمعهما وشاء الزمان أن يفرقهما ويجعل من قلبيهما محطات للذكرى .. تكسرت وفاء وأصبحت هشة مثل

الزجاج .. أراها ملقاة في مدارات تضخمت فيها الأوجاع وتكدست فيها الأتعاب على شاطئ الذكريات تتألم وتتأوه على فراقه ... كم كتبت له من الرسائل وكانت نهايتها الحاوية فهي لا تعلم لمن ترسلها ... ضاع وضاع معه عنوانه وأخباره.

تجرّأت ذات مساء على الولوج إلى مكتبها الصغير الذي بعتمته قد شارك صاحبته جزءا من آلامها فوجدت على الأرض رسالة يبدو أنها طارت من فوق المكتب بمجرد فتحي للباب.

انتشلتها من الأرض وقرأت.....

" معذبي أكتب إليك والقلم يسرع والدمع يذرف والدم ينزف والقلب يتألم " ...

ألهذه الدرجة وصل عذابها ؟! كم هي مسكينة ... شابة في العشرينات جعل منها الحب امرأة في أربعينيّات السن ... هذا ما دار في خلدي عند قراءتي للسطر الأول ... واصلت القراءة...

"أكتب ولا أعرف كيف أعبر عن مدى حبي وعشقي اللاّمتناهي لك .. سنة من العذاب المميت والوحدة القاتلة مرت وأنا صابرة على ما هو أمرّ من الصبر .. تحملت العذاب وكسرت كل الحواجز من أجلك ولأجلك كل شيء يهون .. لقد أحببتك يا من علمني طعم الحياة وحلاوتها .. أحببتك وكبر في صدري حلم كبير .. أحبك بكل جوارحي وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .. أحبك وسأحبك وسأبقى أحبك إلى آخر عمري .. معذبي ..

أتمنى بعد طول انتظار أن تعود إليّ من بعيد فليس لك مقر سوى قلبي وليس لقلبي من ضابط سوى صدرك.... أنقذني إنني أتألم ...."

أعجب بها من صدفة

انتهت السنة الدراسية الرابعة لوفاء بنجاح وبمعدل خوّل لها الالتحاق بالوظيفة التي طالما حلمت بها ألا وهي الأكاديمية العسكرية وجاء أول يوم لها في العمل فهبّت مستيقظة منذ تبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. صلّت صلاة الفجر وتزينت وتعطرت ولبست زيها العسكري الذي زادها هيبة ووقارا وما هي إلاّ لحظات حتى كانت في سيارتها التي اشترتها حديثا .. قامت بتشغيلها و توكّلت على الله في اتجاه تونس العاصمة تحديدا "فندق جديد" مكان عملها إن شاء الله.

دلفت مكتبها وجلست عليه للحظات ثم أرادت أن تقوم بجولة داخل المركز .. مرت على العديد من العساكر فحيتهم لكن واحدًا استرعى انتباهها ... تملّكها الفضول لمعرفته لأنها رأت في سماته وجه شخص مألوف عندها .... كان شابا يافعا خفيف اللحية مما أضفى عليه مسحة من الرجولة.

تقدمت منه قائلة: "السلام عليك يا زميل."

فرد الجندي وقد تملكه الذهول لهذا الحوار المفاجئ: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته."

فتشجعت وفاء وسألته: "هل التقينا من قبل ؟"

فتفرس فيها قائلا: "كنت سأقول نفس الأمر."

فابتسمت وفاء ودنت منه واستفسرته عن رتبته العسكرية بحكم أنه لا يرتدي بدلته العسكرية فرد قائلا: "رتبتي نقيب." .. فاتسعت عيناها من هول المفاجأة لأنها خالته جنديا عاديا أو رقيبا .. عندما لاحظ دهشتها سألها ضاحكا: "هل لي أن أعرف رتبتك إن سمحتِ ؟" عندها فقط تفطنت إلى أنها نسيت تلك الشارة التي توضع على كتفها وتحمل رتبتها .. فقالت له: "أنا رائد وفي غضون أشهر سأصبح مقدما .. هل لي أن أعرف اسمك حضرة الضابط ؟!"

"أمين ... النقيب أمين"

صُعقت لسماع الاسم .. وقالت: "أأنت أمين فعلا؟ لقد غيّرتك اللحية وقد ازداد طولك ونحافتك .. ألم تعرفني ؟ أنا وفاء." .. وما إن سمع اسم وفاء حتى انتفض واقفا وهو يقول: "أين كنت يا وفاء ؟ لقد حاولت البحث عنك ولم أجدك.."

فأجابته مستغربة: "أنا التي غبت ؟ ؟! ألست أنت من قررت هجرنا دون سابق إنذار ؟! حتى رقم هاتفك غيّرته...."

"لا يا وفاء لم أغير رقمي ... شغلت بعدة أمور وأهملته حتى قطعوا الخط ثم إن رحيلي كان استعجاليّا وإجباريّا بحكم عمل والدي أنا آسف فقد أتعبتك في البحث عنّي."

"أجل تعبت كثيرا من أجل أن أعرف عنوانك الجديد من أجوارك لكن دون جدوى."

تحدث كل منهما بتلقائية وتناسيا بأنهما مجرد صديقين لم يعترف أحدهما للآخر بحبه.

"تغيرت يا أمين ... لقد ازددت ..... ازددت وسامة."

"هههههه أنت أيضا يا وفاء!! لماذا لا ننهي حديثنا في مقهى ؟ ما رأيك ؟"

"حسنا ... دعنا نبتعد عن أعين الزملاء."

"سأنتظرك عند الباب .... غيري ثيابك بسرعة."

"حاضر"

وما هي إلا لحظات حتى جلس الاثنان إلى إحدى الطاولات وطلب كل منهما قهوة ثم بدأا يتحادثان عن أحوالهما وعن حال أهلهما ولم يشعرا بالوقت وهو يمر كقطار سريع يريد إفراغ حمولته في أقصر وقت .... دق جرس الخامسة مساء في إحدى المدارس المجاورة للمقهى فاسترجعا عند سماعه ذكرى المدرسة الإعدادية التي شهدت بناء وتتطور علاقتهما لكنهما أصرّا على ألا يبدو هذا الشوق والحنين على ملامحهما.

الرائد "رائد"

من الغد نهض كل منهما باكرا وحاول جاهدا أن يسبق الآخر .. فها هو أمين يرتدي زيه دون ترتيب المهم كسب الوقت وها هي وفاء تنسى هاتفها ملقى فوق الفراش .. وفي باب الأكاديمية كادت سيارتهما أن تتصادما لفرط سرعتهما فتوقف أمين وفسح أمامها المجال للمرور فردت عليه بابتسامة .. دخل مكتبها عند منتصف النهار ليسلمها عملا كلفه به المقدم الذي يعمل هو تحت إمرته .... لم تكن تنتظر قدومه فصورته أصلا لم تغادر مخيّلتها.

دخل وعليه ملامح التعب فقد كلّف بإيصال المهمات لكل الضباط وقد تكلف منه ذلك جهدا كبيرا .. تناولت وفاء الملف من يده وطلبت منه الجلوس .. كانت تتصفح الكتاب بينما عيناها تتأملان أمين أمامها .. فجأة نهضت وقالت: "هل تسمح لي ؟" واقتربت منه تعيد ترتيب زيه العسكري الذي أهمل الاهتمام به لاستعجاله في الخروج .. وبينما كانت تربط له ربطة العنق مال برأسه نحوها يريد تقبيلها ... تناسى حينها صداقتهما لكنها أفلتت منه .. في تلك اللحظة دخل زميل وفاء يدعوها لحضور اجتماع طارئ لكن ما إن رأى المشهد حتى أنزل رأسه بسرعة وغادر المكان أما وفاء فقد ذابت من الحياء.

"آسف لأنني أحرجتك ... أنا فعلا آسف." قالها أمين وهو يجمع أوراقه المتناثرة ويغادر المكتب.

بقيت بعدها وفاء تميل بين شعورين ... شعور بالخجل مما حصل أمام زميلهم ولتهوّرها تجاه أمين .. ما كان يجب أن تفعل ذلك تعرف ذلك جيدا .. لكنها سارت بما قلبها يهواه فكاد ينتهي بما لا يحمد عقباه .. أما الشعور الثاني فهو إحساس بفرحة عارمة لأن أمين أخيرا بدأ يخرج من صمته وما كاد يفعله إلاّ دليلا على أنهما تخطّيا خط الصداقة ليدخلا عالم العشق .. لحظة انتظرتها أكثر من عشر سنوات ...

"لقد تكلمت المومياء أخيرا." تمتمت في زهوّ وعادت إلى مكتبها تراجع ملف مهمتها من جديد.

كانت مهمة من الدرجة الثالثة تهدف إلى إيقاف عناصر إرهابية مصنفة بالخطرين من الصنف الثاني وكانت وفاء هي قائدة الوحدة المتوّجهة لإيقافهم في أحد جبال القصرين رفقة الرّائد "رائد".

و"رائد" هو رجل عسكري بامتياز ذو قامة طويلة ونحافة مقبولة تشوبه سمرة خفيفة زادته هيبة ووقارا .. و كان أكثر الجنود صمتا لا يتكلم إلا في الحالات القصوى مما يجعلك أمامه في حضرة فيلسوف وهل للفلسفة من منبع غير الألم ؟!

فقد توفي والده وهو لم يزل في المهد صبيّا ... لم يقل كلمة "أبي" منذ أن ولد في تلك العائلة الفقيرة في إحدى مناطق الشمال الغربي .. كان "فلاّقا" أبًّا عن جد هذا هو الإرث الوحيد الذي حظي به من عائلته التي تتكون من أرملة وأخت وأخ أصغر منه بسنة تقريبا.

جاء إلى هذه الدنيا بعد أخته ولحق به أخوه "سائد" الذي تيتّم وهو لا يزال جنينا في الشهر الثاني في بطن أمه بعدما امتدّت يد الغدر لتفتك بروح والده ذات ليلة وهو عائد من عمله كعريف في جيش البر .. قتلوه لأنه رفض أن يطعم أبناءه من الرزق الحرام ... رفض رشوة كانت ستكفيه لعشرين سنة أخرى مقابل أن لا يخبر عن عملاء الإرهابيين المندسّين في صلب الجيش الوطني آنذاك .. ولأنه كان رجل ضمير عن جدارة رفض أن يسكت ... حتى مالهم الوفير أمام قلة ذات يده ما استطاع أن يلجمه فأرادوا أن يتم كل شيء ذات ليلة بينما كان أبناؤه وزوجته الحامل ب"سائد" ينتظرون عودته بفارغ الصبر لتناول وجبة العشاء.

كبر الأطفال وعلموا بالمصير المأساوي الذي تعرض له والدهم .. فقر العائلة أجبر الأخت الكبرى "ياسمين" على العمل كمعينة منزلية في بيت رجل متزوج حديثا للمرة الثانية بعد وفاة زوجته الأولى وقد كان رجلا أربعينيّ السن ولأنها صغيرة السن فقد استغلها الحقير لأجل غايات أخرى في ظل غياب زوجته بحكم عملها ولمّا حملت منه قام بطردها وادعى بأنها كانت كثيرة التردد على أماكن مشبوهة .. وبأنه لم يفعل لها شيئا بل بالعكس أحسن

إكرامها واعتبرها مثل "ابنته" .. وأمام هول المصيبة وفقدان الحيلة عادت ياسمين إلى بيتها بجنين يتخبط بين أحشاءها.

وذات مساء عاد "رائد" من المدرسة وأسرع متوجها نحو الغرفة التي يعيش فيها مع إخوته بالتقاسم .. كان يريد أن يخبر ياسمين بأنه نجح بامتياز .. دفع الباب و دخل لكنه سرعان ما تسمّر في مكانه وعيناه تنظران إلى السقف حيث كانت جثة أخته تتأرجح بلا روح ..... لم يعرف ما يقول ولا ما يفعل ... لم يشعر إلاّ ويد أمه توقظه: "رائد ... رائد ... عزيزي انهض ... هل أنت بخير.؟! أجبني أرجوك يا رائد."

فتح عينيه بصعوبة وحرك فمه ليطمئن أمه لكن ... لقد فقد القدرة على الكلام من قوة الصدمة التي تلقّاها .. بعد وفاة أخته بحوالي شهر جاءت الصدمة التالية ... توفيت والدته من شدة الحزن على فراق ابنتها البكر والمعينة الوحيدة لها في أمور البيت من مصاريف وتنظيم.

لن أصف لكم صدمة شخص تيتّم مرتين فياسمين كانت أمه بدلا عن أمه التي كانت تقضي اليوم في العمل لدى الفلاّحين علهم يجودون عليها ببعض محاصيلهم من خضر وغلال.

بقي معه "سائد" فقط ووجد نفسه وهو ابن العشرة أعوام والعاجز عن النطق مسؤولا عن أخيه ذي التسع سنوات .. واصل دراسته إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره عندها عرف

"سائد" بالقصة كاملة ... من قتل والده ... من كان سببا في موت أخته ... لماذا ماتت أمه ولماذا فقد أخوه النطق .. فكبر وكبر الحقد في قلبه لكن محبة أخيه كانت تكبر كل يوم. تفوّقا في الدراسة بالرغم من كل الظروف الصعبة والتي زادها تعقيدا عجز رائد عن النطق حتى ببعض الكلمات .. وذات يوم قرر سائد أن يذهب إلى العاصمة للبحث عن عمل بعدما أحس بإرهاق أخيه الشديد الذي يظهر في نوبات ارتعاش أثناء النهار ونوم متقطّع أثناء الليل فحمل ما خفّ وزنه من طعام ولباس وتوكل على الله.

استيقظ "رائد" في الصباح فوجد: "رائد ... يا أخي ... لا لا بل أبي ... (أبي) ما أحلاها من كلمة لم أشعر بحلاوتها منذ ولدت ... لكنك كنت خير الأب ونعم الأخ ... آسف لأنني أتعبتك لسنوات ... لن أواصل دراستي فمستقبلي واضح ... بلدنا بلد رشاو و بلد أنت ابن فلان ومن كان له أب فقير مثلنا يا أخي يهان ... رائد وداعك ما كان قرارا سهلا صدّقني لكنني فعلت ذلك لأنني أحبك ... واصل أنت دراستك وانتبه لنفسك لأجلي .... سأعود إن شاء الله ... سأعود بالكثير من المال وسأجري لك عملية لتستعيد نطقك ... شكرا يا أحلى أخ في الدنيا."

كانت تلك رسالة "سائد" له ... أظلمت الدنيا في عينيه حاول أن يصرخ لكن حباله الصوتية خانته ورفضت عزف معزوفة الحزن تلك ... صار وحيدا .... لكنه قرر أن يواصل

دراسته ويتفوق لعلّه يضمن عملا ينقذه هو و"سائد" من براثن الفقر والحاجة .. بعد سنة دراسية كلّلت بالنجاح الباهر لرائد قرر المجازفة والاشتراك في الأكاديمية العسكرية تخليدا لذكرى والده رغم علمه بأنه سيرفض لعدم قدرته على التكلّم.

في نفس اليوم جاءته رسالة من أخيه جاء فيها: "يا رائد قلبي وحياتي مبارك النجاح الباهر الذي أنجزته أنا الآن أعمل مساعدا لصاحب مطبعة وأكسب منها بعضا من المال أرى أن تأتي في العطلة لتساعدني .. هو يبحث عن مساعد ولا أظنه سيجد خيرا منك ... أنتظرك أخوك المشتاق سائد".

و فعلا التحق رائد بأخيه في العاصمة علّه يجني بعض المال ليبتدأ حياته الجامعية وهناك حصل ما غيّر حياته .....

كان يوما روتينيا عاديا صحبة صاحب المطبعة ... صوت قهقهاتهم يشق صمت المكان لنكتة من صاحب المطبعة ألقاها عليهما ... كان رجلا عجوزا في السبعينيات من العمر لم يتزوج ولم ينل من الأطفال نصيبًا وقد فرح كثيرا بسائد عندما وجده ذات ليلة ممطرة ممددا في الشارع يرتعد من شدة البرد .. كفله وجعله يعمل معه وزاد في إكرامه حيث آواه في بيته بل وصار يناديه "بني" وأصر عليه أن يستدعي رائد أيضا للعيش معهما.

كان يوما عاديا إلى أن ضحك العجوز لوقع نكتته ثم سرعان ما تلاشى الضحك وأمسك بالجانب الأيسر من صدره وبدا وكأنه عاجز عن التنفس .. ذهل الشابّان فلم يجد رائد من بد سوى أن يخرج بحثا عن سيارة أجرة أو سيارة إسعاف ... قادته رجلاه إلى المستشفى وما هي إلا لحظات حتى كان العجوز في غرفة الإنعاش ورائد وسائد عند الباب ينتظران خروج الطبيب .. هناك غير بعيد عنهما كان هناك رجل ينتحب ومعه رجل آخر يقول له: "اهدأ بالله عليك اهدأ ... سيكون كل شيء بخير يا (صلاح) .. هوّن عليك."

في الأثناء جاءته طبيبة مرفوقة بممرضة تطلبان اسمه قصد الإدلاء به في محضر الشرطة فقال: "صلاح الغندري .. اسمي صلاح الغندري وابنتي نارمين الغندري ... أرجوك يا دكتورة أنقذيها إنها ابنتي الوحيدة ... إنها لم تبلغ الحادية عشر حتّى ... إنها في ريعان شبابها ... لقد تم اغتصابها والإلقاء بها في عرض البحر تنكيلا بي ... فلا تدعيها تموت." ورحلت الطبيبة بعد أن سردت عليه وابلا من كلمات التعازي والأمل وعند الباب سمع رائد الطبيبة تقول: "كما تدين تدان أليس هو نفسه الغندري الذي اغتصب عاملته المنزلية ذات الخمسة عشر ربيعا والتي انتحرت درءا للفضيحة ؟!" كان لكلماتها صدى في أذنه كأنما هو إعصار هائج يرفض الهدوء .... أيمكن أن يكون ذاك المنتحب أمامه هو نفس النذل الذي شوّه شرف أخته وتسبّب في تدمير عائلته خاصة وأنه علم من أمه أن اسمه "صلاح" أيضا .. ترجم

شكوكه لأخيه في شكل أسطر كتبها له على ورقة ملقاة على الأرض .... صعق سائد لهول المفاجأة وقرر معرفة الحقيقة كاملة ... ترك رائد في المشفى وتتبّع صلاح حتى وصل إلى بيته فتسلل من نافذة المطبخ التي كانت مفتوحة .. تسلح بسكين وتوجه إلى مقعده في غرفة الجلوس ونظرا لقوة سائد البدنية لم يجد صلاح أي مفر من ذلك الثور الهائج المضجع فوق صدره.

"أريد الحقيقة كاملة."

"أية حقيقة.؟! من أنت ومن أين دخلت ؟"

"كلّها أسئلة ثانوية ... لكن السؤال الرئيسي هو هل أنت من فعلت كل ذلك بأختي ؟"

"أي أخت ؟! من أنت ؟"

"ياسمين .... أنسيتها ؟ ؟ كم أن ذاكرتك قصيرة."

"يس... ياسمين ... أختك ؟!!"

"أجل أيها النذل ... أتعلم ما فعلت بعائلتي يا حقير ؟ انتحرت ياسمين وماتت أمنا حزنا عليها وحتى أخي صار أبكما من شدة الصدمة ..... قل لي ماذا أفعل فيك أيها الوقح ؟!"

"صدقني يا ... لا أعرف حتى اسمك .. لكن صدقني إنني نادم على كل ما بدر مني."

"بماذا سيفيدنا الندم قل لي ؟ ؟...." ورفع السكين ليطعنه .. عند تلك اللحظة ظهر رائد وأمسك بيده وحاول إبعاده من فوق صدر صلاح .. وما إن أحس صلاح ببعض من الحرية حتى قفز إلى مكتبه وسحب سلاحه .. حاول الاثنان الهرب لكن ما إن خرج رائد حتى سمع دوي رصاص خلفه .. التفت فإذا سائد يتهاوى أمامه .. أسرع إليه واحتضنه .. فقال له سائد: "أوصيك بنفسك خيرا .... كن بخير لأجلي ..." و أغمض عينيه للأبد ... من هول الصدمة رفع صوته ليصرخ صرخة شقّت هدوء تلك الليلة ..... لقد عاد إليه صوته لكنه خسر وللأبد أخاه وسنده الوحيد في الحياة ..... علم بعد مدة بأن العجوز قد مات وهو يتمنى رؤيتهما وبأنه قد كتب كل أرزاقه باسم سائد .... لكن أين هو سائد ؟!!

قُبل رائد في الأكاديمية بعدما تخطى أكبر عقبة له وهي البُكم فقد أعاد موت أخيه الحرارة لأوتاره الصوتية لتعود من جديد وتعزف كل ليلة معزوفة حزينة لفراق الأب والأخت والأم والأخ.!!!

الغيرة

منذ تلك الحادثة لم ترى وفاء أمين ربما لإحساسه بأنه كان سبب إحراجها أمام ذاك الضابط الذي عرف فيما بعد بأن اسمه رائد وبأنه سيكون زميل وفاء في المهمة القادمة.

اشتعلت نار الغيرة في صدره ... من هذا "الرائد" الذي سيعمل في مهمة حسّاسة مع وفاء.؟! لكن لحظة واحدة .... ألم يقل بأن وفاء نزوة من نزواته ..... كيف تطلب منه الأمر عشر سنين حتى تجرّأ وحاول تقبيلها بينما لو كانت نزوة لما توانى عن فعل ذلك منذ زمن بعيد هو الخبير بالنساء .... ثم ألم يقل نحن أصدقاء .. إذا لمَ الغيرة ؟ ؟

لم يتوقف عن طرح الأسئلة حتى تيقّن بأنه فعلا وقع في شراكها.

قطع الغرفة آلاف المرات وهو يفكر في طريقة تبعد رائد عن طريق وفاء خاصة وأن نظرات الإعجاب كانت بادية دائما عليه أثناء تحية العلم الصباحية أو أثناء بعض الاستعراضات للجنود بالأكاديمية لكن نظرا لضعف رتبته العسكرية أمام كل من وفاء ورائد لم يجد هو النقيب المسكين حلاّ فأسلم أمره لله واستسلم لنوم عميق.

لأنني أحبك

اليوم هو يوم المهمة .. كانت الخطة بسيطة بعيدة عن كل التعقيدات ... محاصرة الطريق الذي سيمر منه الإرهابيّون ووضع كمين محكم لهم ثم الإطباق عليهم من كل الجهات لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

تجمهرت الوحدة بقيادة وفاء ورائد وبدئوا التقدم بثبات وهدوء نحو إحدى الغابات الكثيفة في منطقة القصرين من أين كان مقررا أن يمر الإرهابيون ذاهبين إلى جبل الشعانبي أعلى نقطة في تونس .. تمركز كل جندي في المكان الذي حدده له رائد بينما بقي هو مع وفاء يراقبان الأوضاع في انتظار الساعة الحاسمة .. الهدوء يعم المكان مما زاد من توتر المجموعة ... تناهى إلى سمع أحد الجنود صوت صليل السيف لكنه ظن أنه حفيف أوراق الشجر وعاد إلى موقعه مركزا كل التركيز على الطريق الذي أمامه إلى أن باغتته طعنة في جنبه وأمام تلك اليد المطبقة على فمه في محاولة لإسكات صرخته لم يجد بدّا من أن يطلق النار في الهواء لتنبيه رفاقه إلى الخطر المحدق بهم ... طلقة كانت كافية لتشرأب كل الأعناق نحو مصدرها وما إن ظهر أمامهم مجموعة من الأشخاص يمسكون بأسلحة نارية وسيوف وسكاكين حتى أيقنوا بأن الخطة قد أُجهضت.

حاولوا الهرب لكن فات الأوان فقد تمت محاصرتهم ... لقد انقلب السحر على الساحر ..

طلبوا من جميع الجنود الإلقاء بأسلحتهم فطلب منهم رائد تنفيذ الأمر ليكسب بعض الوقت.

تكلم (زعيمهم) قائلا: "يا طواغيت نحن هنا لمحاربتكم ... ستطهر الأرض منكم يا أعداء الدين."

تكلم رائد قائلا: "أبشع عدو للدين هو من يدعي بأنه متدين ويشرع بما تقول له نفسه ... أراكم ضحية .. ضحية للوبيات أرادتكم كآلة تحت اسم الدين ... اتقي الله وثب إلى رشدك."

"هل سأتعلم الدين من طاغوت ؟"

"الطاغوت الذي أمامك حافظ لكتاب الله كاملا وهو ملتزم بصلواته الخمس .. سلم الناس من يده ولسانه .. ليس مثلكم يا فئران الأوكار .... عشتم جبناء وستموتون جبناء."

كانت بضع كلمات من وفاء كافية لإثارة حفيظة (الزعيم) الذي أمر بإطلاق النار في اتجاه الجنود العُزَّل .. أسرع كل من وفاء ورائد للاحتماء بشجرة ضخمة كانت هناك وأخرج كل منهما سلاحه الشخصي في محاولة أخيرة للمناص .. كان وابلًا من الرصاص يخترق أجساد أصدقائهم أمام أعينهم بينما يعجزان حتى عن إسعاف الجرحى منهم.

تذكر رائد الإرهابيين الذي قتلوا والده وازداد نقمة ... ملأ مسدسه رصاصا ووجه فوهته نحو العصابة ... لقد نجح في إصابة أربعة أفراد مما أعطى الثقة لوفاء لتفعل مثله.

تركز وابل الرصاص نحو الضابطين بعدما تأكدوا من استشهاد كل رفاقهما لكن يدا واحدة لا تصفق فما هما إلّا اثنين أمام حوالي 30 شخصا مدجّجين بالسلاح .. تم تقييدهما وأخذهما إلى مقر الجماعة أين سيتم تقرير مصير الضابطين .. إما أن يُستغلاّ في مفاوضة مع الدولة أو أن يلقيا نفس مصير رفاقهما.

وصل الخبر إلى القاعدة العسكرية فهاج (آمر جيش البر) وماج .. كيف لا وقد أسر أحسن ضابطين عنده .. أرسل إلى الضباط الساميين يستدعيهم لحضور اجتماع عاجل لتحديد الخطوة القادمة لإنقاذ كل من وفاء ورائد .. مرّت على الطاولة عشرات الخطط لكن تمّ رفضها ذلك لأنهم أمام عصابة منظمة ومتماسكة وأي خطأ سيكلف حياة المزيد من الجنود إضافة إلى حياة الضابطين .. وبينما هم في قمة تركيزهم إذ بهم يسمعون ضجة في الخارج طلب (الآمر) من أحد الجنود استجلاء الأمر فأخبره بأن أحد الضباط يريد الدخول فأمر بإدخاله.

دخل أمين وهو يسوّي بدلته العسكرية من أثر الشجار في الخارج وعيناه شديدتا الحمرة فهو لم ينم من كثرة التفكير في حل ينقذ وفاء من براثن الإرهاب.

"لم كل هذه الضجة يا ضابط ؟!" قال الآمر في حزم.

أدى أمين التحية ثم قال في شجاعة: "النقيب أمين .... ضابط في الفيلق السابع أتمنى من سيادتكم منحي فرصة تحرير الضابطين رفقة مجموعتي."

"فرقتك لن تكون أسعد حظا من فرقة وفاء ورائد .... عد إلى الثكنة يا بني ودعنا نبحث عن حل مُجدٍ."

"سيدي امنحني فرصة ... إنها بالنسبة لي مسألة حياة أو موت ... أعدك لن أخذلك يا سيدي."

تبادل الضباط النظرات ... من أين له بهذه الجرأة ؟!! لم هي مسألة حياة أو موت عنده ؟

"يبدو أن المسألة بدأت تأخذ منحى شخصيا بعض الشيء لمَ لا نعول عليه.؟! نحن أصلا لا نملك خيارات كثيرة." قال أحد الضبّاط الذين شاهدوا بعضا من انعكافات وفاء وأمين في ساحة القاعدة ورأى أن قوة الحب ستكون أقوى من السلاح وستعيد وفاء على الأقل.

وبعد مشاورات تم الاتفاق على منح أمين الثقة .. ودعهم وهو يكاد يطير من الفرحة نادى مجموعته وأملى عليهم الخطة وانطلق قاصدا المكان الذي حددته وفاء عبر رسالة قصيرة أرسلتها له في غفلة من جنود الحراسة.

وصل إلى المكان المحدد أخيرا ... كانت خيمة محاطة بعشرات الرجال بينما انتشر آخرون هنا وهناك يعدون الذخيرة أو يجمعون الحطب .. تقدم صحبة خمسة رجال وطوّقوا الخيمة قتلوا كل حرّاسها وتسللوا إلى الداخل بينما كان البقية على أتم الاستعداد للتصويب نحو كل من يقترب من الخيمة من أفراد العصابة.

ما إن ولج الخيمة رأى وفاء مغلولة اليدين والساقين وعلى فمها شريط لاصق لمنعها من الاستغاثة أسرع في فك وثاقها وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار بحثا عن رائد.

لم يكن أمره يعنيه كثيرا بل كان يتمنى موته ليفسح الطريق أمامه للظفر بوفاء لكن واجبه كعسكري أجبره على البحث عنه.

"إنه في الداخل ... لقد أخذوه هناك بعدما قرئوا هويّته ..." قالت وفاء وهي تفرك معصمها في ألم من أثر الحبل الذي أحكموا به وثاقها.

ساعدها أمين في الوقوف ثم توجها نحو الغرفة الثانية في الخيمة .. هي في الأصل ليست بغرفة بل كان يفصل بين الغرفتين مجموعة شباك صيد وستار ضخم .. هناك سمعا صوت أنّات منبعثة ... قفزت وفاء من مكانها في اتجاه الصوت: "رائد ماذا فعلوا بك ؟ هل أنت بخير ؟" قالت وهي تحاول تحريره .. التحق بها أمين وفي عينيه ألف سؤال .. لماذا اقتادوه إلى هنا ؟ لماذا لم يبق مع وفاء ؟ لماذا عنّفوه بينما لم يفعلوا مع وفاء ؟

وقطع حبل أفكاره صوت دوي رصاص في الخارج ... لقد تم التفطن إليهم إذا لا وقت للإجابة على الأسئلة .. وقف الثلاثة بسرعة وفي يد كل منهم سلاحه على أتم الاستعداد للتصويب نحو كل القادمين.

ازداد دوي الرصاص في الخارج .... "لقد فتكوا بنا ... حاولوا الهروب يا سيدي..." كان ذلك آخر ما قاله الوكيل المرافق لأمين الذي تركه في الخارج لتأمين دخوله للخيمة عبر جهاز الإرسال اللاّسلكي .. اغتاظ أمين فذلك الوكيل كان بالنسبة له أكثر من جندي .. لقد كان أخا وصديقا ورفيقا في الغربة وفي الحرب ... كان من الأوائل الذين ساندوا أمين في هذه الخطة بقوله "سيدي أنا معك ... أعلم أنك على حق وما خاب يوما من كان على الصراط المستقيم ... شرف لي أن أنال الشهادة وأنا خلفك أحمي ظهرك من أن أموت ميتة حقيرة فوق فراش العجز والجُبن ... هذه وصمة عار يا سيدي ... أنا معك دائما وأبدا"

أنا معك دائما وأبدا ... تكررت هذه الجملة في ذهن أمين مرارا وتكرارا حتى كادت تخونه العَبرات فغالب نفسه لكي لا يظهر ضعفه أمام "أسياده".

تقدموا خارجين من تلك الغرفة إلى الغرفة التي كانت فيها وفاء وهناك كانت المفاجأة ... كل من تركهم أمين وقد كانوا خمسة جنود قد قتلوا وأمامهم عصابة من 20 نفرا تقريبا كل

منهم يحمل بندقية موجهة نحو الضباط الثلاث .. تسمّر ثلاثتهم في مكانهم وأيديهم على الزناد ينتظرون أي حركة من العصابة.

دخل رجل محاط بأربعة رجال أشدّاء تعرف عليه كل من رائد ووفاء .. لقد كان نفس الرجل الذي تحدثوا معه يوم احتجازهما.

"هههههه كم أنتم حمقى أيها الطواغيت .. أرأيتم كيف طهّرنا أرض الله منكم ؟ سنقايض الدولة ... أن تفك أسر زعيمنا مقابل إخلاء سبيلكم." قال (الزعيم) في فخر.

"والله إنه لأشرف لنا أن نموت على أن يطلق سراح ذاك الكلب زعيم الضباع يا ح...." قال أمين في غضب لكن الضربة التي تلقاها على رأسه من الخلف كانت كفيلة بأن تدخله في غيبوبة وحالت دون إنهائه لوابل الشتائم التي كان سيسددها لهم.

صرخة وفاء في فزع وأسرعت تحاول إيقاط أمين ... كان رأسه ينزف بينما أخذ جسمه في الارتخاء شيئا فشيئًا.

قالت وفاء والدمع ينهمر من عينيها: "أيها المجرمون أنتم غير مدركين لما فعلتم .. لقد قتلتم ضابطا."

"بل قتلنا عدو الله .. "

" كفاكم هلوسة ... أليس مسلما مثلكم ؟ أليس مُصليّا ؟ هل رأيتم أنه فاجر ؟ أجبني..."

"إنه عدو الله وحسب ... عسى الله أن يتقبل منّا شهداءنا في هذه الهجمة."

هنا قاطع رائد كلامه: "عسى الله أن يقبل أبي أيضا ضمن الشهداء ... قتل لأنه علم بمخطّطاتكم ... قتل لأنه رفض رشوتكم ... قتل لأنه لم يبع زملاءه ..."

"بل قتل لأنه أحمق ... أعطيناه من المال ما يكفيه وأكثر ... طلبنا منه فقط التكتّم على عناصرنا المندسَّة ... قتله مبدأ أحمق وضع ليطيعه إنسان أخرق."

فهمت عندها وفاء لماذا أخذوه إلى تلك الغرفة وعذّبوه .... لقد كان هؤلاء هم قتلة والده الذين حدثها عنهم عندما خرجا مرة في نزهة إلى الشاطئ ... لقد أخبرها عن كل شيء .. طفولته المحرومة .. تيتُّمه ثلاث مرات ... موت أخيه ... مرضه وشفاءه.

أجّج هذا الأمر غضب وفاء التي قامت والتقطت مسدسها وصوبت فوهته نحو الزعيم ... وأطلقت النار ... سقط الزعيم مُتخبّطا في بركة دمائه .... وأمام هذا المشهد وجّه جميع الرجال أسلحتهم نحو وفاء وأطلقوا النار ... وسقط رائد أمام ذهول وفاء ... لقد قفز رائد أمامها ليكون حاجزا بشريا أنقذها من سيل الرصاص المُوجّه نحوها.

"لمَ .... لماذا فعلت ذلك ؟" قالت وفاء وهي تنظر إلى رائد في لحظات حياته الأخيرة.

"لأن .... لأنني أحبك ..."

ذهلت وفاء من هول الموقف .... فحبيبها السابق ملقى أمامها والدماء تنزف من رأسه وزميلها الآن يضحي بحياته لأنه يحبها ... قطع عليها ذهولها دوي قصف قوي ... يبدو أن الجيش قد أرسل تعزيزات جوية ... وأمام قوة القصف هرب أفراد العصابة تاركين الضباط الثلاثة يواجهون مصيرهم داخل الخيمة.

"علمت بأن سعادتك لن تكون إلا معه .... اعتنِ به ... لا تدعيه يموت ... إنه يحبك."

سمعته يقول ذلك للوكيل أحمد الذي استشهد قبل قليل ... "أتمنى لك حياة سعيدة .. أنا حياتي انتهت بوفاة أخي ... شكرا لأنك فعلت ما كنت أريد فعله لسنين ... لقد أخذت بثأر أبي ... يمكنني الآن أن أنام قرير العينين ... أخيرًا سأرى والدي في الجنة وسألتقي عائلتي ... كما أنني اطمأنَنت على مستقبل من أحب."

انتهت المهمة بوفاة الرائد رائد وقيام الأكاديمية بتكريمه بوضع تمثال له في ساحتها وأخذ أمين على جناح السرعة إلى أقرب مستشفى وقد بدأ يتماثل للشفاء ..أما وفاء فبالرغم من شدة سعادتها لأنها ترى حب حياتها يتماثل للشفاء إلاّ أنها تشعر بالشفقة على رائد ... لم ترغب يوما أن تنتهي حياة تلك الأسطورة الصامدة بتلك الطريقة .. ولأجلها .. لكن تؤخذ الدنيا غلابا وقدر الله وما شاء فعل فليرحمه الله.

الزواج

خرج أمين بعد حوالي أسبوع .. كان قد علم مسبقا وما ‘ن أفاق من غيبوبته بمصير "رائد" فانتابه حزن شديد لتلك النهاية المحزنة لكن بريق عينيه كان يحمل مسحة من الفرح لأنه ارتاح من منافسة هو في غنى عنها لأنها سترجّح كفة رائد بالتأكيد (على حسب ظنه) على كفته هو النقيب المغلوب على أمره ... لكنه لم يكن يعلم بأن قلب وفاء لم ولن ينبض إلاّ باسمه وحده.

خرج بعد أن أتم عمليات الاستخلاص وعند الباب وجد وفاء بانتظاره فتهلّلت أساريره. تبادلا التحية وطمأنها إلى صحته معاتبا إيّاها على قدومها لزيارته في أوقات عملها فأخبرته بأنها ليست هنا لزيارته بل إنها كانت على دراية كاملة بملفه الصحي وهي على علم بأن اليوم هو يوم خروجه من المستشفى.

"خشيت أن الضربة قد أنستك قواعد السواقة فجئت أعرض خدماتي عليك كسائق لحضرتك فهل تسمح لي ؟" قالت وفاء ممازحة أمين .. الذي انفجر ضاحكا وقال: "أنا أثق في سائقي .. أعرف أنه محترف لذلك سأنام في السيارة قرير العين."

حملت وفاء الحقيبة التي كان يحملها أمين وبها ملابسه التي أحضروها له من الأكاديمية ووضعتها في السيارة ثم فتحت له الباب قائلة: "تفضل سيدي" .. ابتسم أمين وولج السيارة وما هي إلا لحظات حتى كان الاثنان في الطريق متجهين إلى منزل أمين الذي اشتراه حديثا كجزء من التمهيد لزواجه.

في الطريق تبادلا الحديث والنكات ... لقد كان كل طرف منهما مشتاقا للطرف الثاني لدرجة أنهما لم يحسّا بطول الوقت .. أنزلت وفاء أمين أمام منزله وعادت أدراجها نحو منزلها .. أما هو فقد حمل حقيقته ودخل بتباطؤ إلى المنزل ... كان عليه أن يطبخ أي شيء ليسد رمقه فهو لم يستسغ يوما طعام المستشفيات .. ألقى بالحقيبة على المقعد المتواجد بقاعة الطعام وقصد المطبخ ... فتح الثلاجة بحثا عن بعض المكونات ليطبخ حساء فوجد القليل من الخضروات ... أخرجها ووضعها في وعاء به ماء ليغسلها ثم التفت ليبحث عن الأواني المناسبة ... لقد كان يعمل بسرعة لكي يربح بعض الوقت فقد قرر أن يستدعي وفاء هذا المساء على العشاء ليشكرها لما فعلته وليفاتحها في الموضوع الذي انتظره لسنين.

شعر فجأة بدوار حتى ما عاد قادرا على التمييز بين الأشياء التي يراها ... لقد نصحه الطبيب بالراحة التامة لمدة ثلاثة أيام لكنه كان إنسانا مستهترا وزاد من استهتاره أنه صار يعيش وحيدا بعيدا عن عائلته مما أجبره على الاهتمام بأموره الشخصية بنفسه.

اشتد به الصداع فلم يجد بُدًّا من أن يترك كل شيء ويذهب إلى قاعة الجلوس ليستلقي محاولا استعادة توازنه .. وبينما هو سارح بفكره فيما سيفعله في المساء إذا بالجرس يدق .. فتح الباب فوجد وفاء ممسكة بسلة كبيرة وهي تبتسم .. ذهل لهول المفاجأة ولم يفق إلاّ على صوت وفاء تقول: "ألن تسمح لنا بالدخول يا حضرة النقيب ؟"

"بلى .. بلى ... تفضلي."

"شكرا جزيلا لك .... لقد رأيت أن مريضنا ما زال في حال غير مستقرة لذا قررت أن أحضر لك شيئا تأكله." وأخرجت وعاء كبيرا والعديد من الصحون الممتلئة بالطعام.

"لماذا كلفتِ نفسك كل هذا الجهد .... لقد ... لقد كنت على وشك أن أطبخ."

"مازلت متهورا كما عهدتك ... ألقيت بتوصيات الطبيب عرض الحائط."

"الطبيب ؟ ؟"

"نعم الطبيب .. ألم يجبرك على راحة تامة لمدة ثلاثة أيام ؟ خلال هذه المدة هل تسمح لي بأن أعتني بك ؟"

دهش أمين لذلك ... لقد كانت تعلم أدق تفاصيله لكنه فرح لهذا العرض فهو وحده لن يقوى على القيام بكل شؤونه خاصة الخارجية منها .. تناولا الطعام ذاك اليوم ثم قامت

وفاء بتوديعه واعدة إيّاه بأن تزوره في الغد ومعها طعام يكفيه يوما كاملا .. ودعها وقد أجَّل بينه وبين نفسه ذاك الموعد الذي حدده للتحدث معها.

ومرت تلك الأيام الثلاث على نفس الوتيرة .. تأتي وفاء كل صباح محمّلة بما لذ وما طاب ثم تنظف المنزل من آثار الغبار وما شابه ثم تقصد عملها بعد الاطمئنان على أن صحة أمين آخذة في التحسن .. وجاء يوم العودة للعمل .. كان يوما حاسما ففي نهايته تمّ ما انتظره أمين بشغف فبعد نهاية العمل عرض على وفاء الخروج لتناول العشاء على حسابه الخاص كشكر لجميلها فوافقت وهناك انتقيا مكانا منزويا حيث يمكنهما التحدث بكل حرية.

"أولا ... هذا عربون شكر على ما فعلته معي ... فعلا لم أجد كلاما يوفيك حقك ش..."

وضعت وفاء يدها على فمه لإسكاته وهي تقول: "ما الذي تقوله.؟!! و هل يوجد من جميل بين الأصدقاء ؟!"

اغتاظ أمين لكلمة "أصدقاء" لكنه قرر الاستمتاع باللحظة ... لأول مرة تلمسه وفاء عدا يده أثناء السلام .... تذكرت هي الأخرى ذلك الأمر فسرى فيها شيء كأنما هو تيار كهربائي حرك كل أوصالها وأرعش يدها التي سارعت بسحبها في خجل.

"وفاء ... أردت مفاتحتك في أمر آخر."

"أنا أيضا كنت أريدك في أمر."

هي أيضا كانت تريده في أمر ؟! هل هو نفس ما سوّلته له نفسه أم أنه أمر مخالف ؟! هذا ما تناهى إلى ذهنه عندما سمع ما قالته وفاء.

"فلنبدأ بموضوعك أولا إذا."

"حسنا ... لا أعرف من أين أبدأ ... أنا فعلا محتارة."

"هيّا هوّني عليك فلو أن النادل أخبرنا بأن المطعم به قنبلة .. لكان أقل توترا منك هههههه"

"الأمر ليس بذلك التعقيد .... كل ما في الأمر أنني كنت أريد أن أقول لك بأنني .... بأنني أحبك."

لم يصدق أمين ما سمعه للتو فقال مستغربا: "ماذا قلتِ ؟ ؟"

"لا شيء يا أمين .... زلة لسان ... آسفة." لقد خافت من أن يكون استغرابه استغرابا سلبيا يكون بعده الرفض وحزن أمين لأنها اعتبرت إنجازه الذي يسعى من أجله زلة لسان.

"أتعلمين أنه نفس الموضوع الذي جئت من أجله ؟!!"

رفعت وفاء رأسها بسرعة وقالت: "ماذا ؟... أتقصد ... أتقصد.؟!!"

"أجل أنا أبادلك نفس المشاعر منذ أول يوم رأيتك فيه ... لقد عشت أكثر من عشر سنوات وأنا أتصنّع الابتعاد .... أردت لك مستقبلا مع إنسان آخر قادر فعلا على إسعادك بعدما

كنت أتخبط بين بنات حواء ... كم هو مؤلم أن تتصنع الابتعاد وأنت من الشوق تكاد تنفجر ... لكن لمَ لم تخبريني ؟!! آه لو حصل ذلك ... لكنا الآن أفضل حالا."

نزلت الدموع من عيني وفاء ولم تقوَ على استجماع كلمات تبرر بها موقفها.

"خفت من أن أحبك جدا فأفقدك فأتألم ... وخفت أن لا أحبك فتضيع فرصة للحب فأندم ... أنا فعلا آسفة ... لقد ظننت بأنك لا تبادلني نفس المشاعر لكن بعض الظن إثم."

نهض أمين ومسح دموعها المنهمرة وجثا عند قدميها قائلا: "ما زال لنا متسع من الحب يا حبيبتي .... لم يفت الأوان بعد .... أعدك بأنني سأعوض لك كل ما فات وكل ما مر عليك في يوم من الأيام بسببي."

"و أنا أعدك بأن أبقى وفية لك حتى آخر نفس لي في الحياة."

بعد مرور أسبوعين على تلك الليلة كان كل شيء جاهزًا لحفل زفاف العروسين وقد كان حفلا مشهودا حضره كل زملاء وفاء وأمين وبعد نهاية العطلة الممنوحة لهما عادا إلى العمل أين وجدا استقبالا حارا بالتهاني والورود .... هما منذ اليوم في الأكاديمية بصفتهما زوجين.

حدسها لم يخطأ

بعد فترة من العمل الجاد نال النقيب "أمين" احترام كل رؤسائه ومنهم زوجته التي نالت ترقية بمناسبة نجاحها في أكثر من مهمة من جميع المستويات بعد تلك الحادثة المشئومة.

قرر الضباط السّامون أن يوكلوا مهمة للنقيب الشاب يتم بعدها مباشرة ترقيته .. يومها لم تعرف وفاء لماذا هي الوحيدة من جملة أربعة وعشرين ضابطا التي رفضت إعطاء تلك المهمة لزوجها لكن أمام موافقة الأغلبية لم تجد بدّا من أن تذعن لقرارهم.

عادت يومها إلى البيت مهمومة غير مرتاحة البال لهذا التعيين ورأى أمين وجومها فاستفسرها قائلا: "لماذا أنت واجمة يا عزيزتي ؟ هل هناك من أزعجك في العمل ؟"

فأجابته بصوت شبه مكتوم: "هناك شحنة مخدرات سيتم إدخالها للتراب التونسي عن طريق أحد الموانئ ويجب إيقافها قبل أن يتم ذلك."

فقال مستغربا: "وما دخلنا نحن بهذه الشحنة ؟ ألم يتم إعفاءك من مهمات التهريب بصفتك الآن (مقدما)؟"

"لقد قرر كل الضباط الساميين أن يضعوا هذه المهمة على عاتق نقيب يكون محل ثقة الجماعة."

فقاطعها قائلا "آه فهمت .. لم تتفقوا حول هذا الشخص ويبدو أنهم رفضوا مرشّحك ... أنا أعرفك حق المعرفة لا ترضين بالهزيمة .. ههه لكن هل يجعلك هذا الأمر حزينة بهذه الصورة ؟"

"كيف لا أحزن و أنت من اختاروك يا أمين.؟! أجل لقد وقع الاختيار عليك أنت وحدسي يقول لي بأنها لن تكون سهلة ..... أنا أخشى عليك منهم يا أمين."

"لا تقلقي عليّ يا وفاء أنا قادر على تخطي هذه العقبة وسترين ذلك بنفسك." قالها أمين وهو يجاهد لإخفاء التوتر البادي عليه فحدس وفاء لم يخطأ أبدا ... أبدا.

و جاء يوم المهمة فاستقل أمين شاحنة ضخمة تابعة للجيش وأخذ معه مجموعة من الجنود وتوجهوا نحو الميناء لكن الوقت كان يداهمهم فقد وصله اتصال هاتفي يخبره بأن الشحنة على غير المتوقع ستصل قبل الوقت المحدد بنصف ساعة لذا عمد إلى سلك طريق مختصرة لربح الوقت لكن أثناء مرورهم من هناك برزت لهم شاحنة متوقّفة في الطريق مانعة سيارة أمين من المرور فلم يجد السائق خيارا غير التوقف.

لكن ما إن توقفوا حتى برز من خلف الشاحنة رجال ملثمون سرعان ما قاموا بإطلاق النار على أمين وزملائه فاستشهد السائق أما البقية فقرروا الفرار تاركين أمين وحده في ساحة الوغى فحاول الذود عن نفسه ... أطلق النار على شاحنتهم في محاولة لتفجيرها لكنه فشل

فحول هدفه نحوهم ونجح في إصابة أربعة أفراد منهم لكنه لم يتفطن إلى الرجل المتخفّي خلف عجلة القيادة الذي استغل شروده وأصابه بعيار ناري في مستوى صدره وتركه غارقا في بركة من الدماء ثم هرب.

القرار الأخير

في المساء عادت وفاء إلى البيت وكانت معتادة على أن تجد أمين فهو يخرج من الأكاديمية دائما قبلها منذ أن نالت شرف الترقية.

نادته قائلة: "أمين .... أمين ... أين أنت ؟ لي لك خبر سار سيجعلك تطير من الفرحة."

لكن وعلى عكس العادة لا مجيب .. عاودت النداء مرتين وثلاث لكن لا جدوى .. اتصلت به في العمل فتم إخبارها بأنه أصيب خلال العملية وقد نقل إلى المستشفى لمعالجته

ولهول الخبر لم تتمالك نفسها ألقت بالسماعة أرضا ثم أصابها دوار شديد انتهى بها إلى إغماء لم تفق منه إلاّ في صباح اليوم الموالي بفضل أشعة الشمس التي تسللت من النافذة وتركزت حول وجهها كأنما توقدها .. قامت من توّها واتجهت نحو المستشفى فوجدته ممدّدا على سرير طويل وقد لُفَّ بالضمادات.

حاولت أن تكلّمه فمنعها الطبيب قائلا: "لا يمكنك أن تكلّميه الآن سيدتي فصحته متدهورة جدا."

"وهل حالته خطرة ؟ أرجوك أصدقني القول يا دكتور ... أنا زوجته."

"لي الشرف في لقائك سيدتي ... صراحة ... أجل فقد أصابت الرصاصة الوريد القلبي ولمست بعضا من بطينه الأيمن وهذا قد يؤثر على بقية أعضاء جسمه."

"وما الحل يا دكتور؟"

"لقد قمنا باستئصال الرصاصة ... صحيح أن حالته خطرة لكنها مستقرة وهذا الأهم ... لكن يجب أن نبحث له عن قلب جديد ... قلبه الحالي شبه عاجز عن القيام بوظائفه الطبيعية."

"وهل يستغرق هذا وقتا طويلا؟"

"طبعا سيدتي .. المطلوب الآن أن تكوني صبورة."

ذعرت وفاء ثم ما فتئت تبكي حظها السيئ بكل مرارة فالموت يترصّد أغلى شيء حاربت من أجله وصارعت من أجل الحصول عليه.

ومضى شهران وأمين على تلك الحالة .. لا يتكلم ولا يسمع ولا يأكل ولا يشرب فقد كان ذلك السائل الموضوع في كيس معلق والمتدفق إلى بدنه بسرعة وسيلة تواصله مع العالم الخارجي حتى يأس الأطباء من حالته ومن أن يجدوا قلبا له فقرروا نزع الأجهزة عنه غير مبالين بما سيؤول إليه وضعه الصحي لأنهم ارتأوا بأن الموت في هذه الحالة أهون من العيش مع تلك الآلام .. لكنهم لن يفعلوا شيئا قبل الحصول على موافقة زوجته لذا كلفوا طبيبا مشرفا عليه للتحدث معها فانتظرها عند باب المستشفى وما إن قدمت حتى حيّاها

وقال لها: "أعرف أن ما سأقوله لك الآن أمر صعب عليك تحمله .. سيدة وفاء إن حالة أمين تزداد سوءا يوما بعد يوم لذلك قررنا أن ننزع عنه الأجهزة وإخراجه من عرفة العناية المركزة."

فصاحت فيه قائلة: "لكن هذا معناه ألا أمل في تحسن حالته .. ثم إن نزع الأجهزة عنه في هذه الحالة قد يؤدي إلى وفاته."

"لكنه قد يؤدي أيضا إلى نجاته ... إلى متى سيظل متكلا على هذه الأجهزة.؟! سيدتي زوجك يتعذب ... أرى أن تُريحيه."

مزقت هذه الكلمة فؤاد وفاء فموته أهون من أن ترى أمين يتعذب ... تذكرت كل التفاصيل التي جمعتهما ... لعبهما ومرحهما ... تلك البسمة التي طالما أنعشتها وأسرتها ... أول لقاء غرامي جمعهما في بيته يوم كانت تهتم بشؤونه بعد إصابته في تلك الحادثة .. الزواج والأيام السعيدة التي تلته .... كل ذلك مرّ في ذاكرتها في غضون دقائق مما سارع في خروج تلك الدمعة التي جاهدت في إخفائها عن أعين الطبيب .. إنه يتألم ... آه ما أقسى هذه الكلمة وما أشد وقعها في نفسها ... لن تسمح بذلك حتى وإن كلفها الأمر حياتها ... حزنت لأن الطبيب كان قد أخبرها بأن قلبها لن يلائم أمين .... أجل كانت ستعطيه قلبها فما

الفائدة من بقائها حية وهو يتألم ... ستموت في اليوم آلاف المرات مع كل آهة تخرج من فمه الذي ما تعود إلاّ على الابتسام .. لمَ حظها عاثر بهذا الشكل ؟!!

"حسنا افعلوا ما ترونه صائبا."

"إذا مرت 24 ساعة على نزع الأجهزة منه وهو لا يزال حيا فهذا معناه أنه تخطى مرحلة الخطر."

"آمل ذلك يا دكتور." قالت ذلك من وراء دموعها وغادرت دون أن تراه ... لن تتحمل منظره وهو مكبل بكل تلك الأسلاك في محاولة لمساعدة قلبه المصاب ... أما هي فلم تجد غير الدموع والدعاء بلسما لقلبها المُعتصر من الألم.

الحمد لله

وعشية ذلك اليوم نزعت الأجهزة عنه ومضى على ذلك أكثر من عشرين ساعة وهو على حالته الأولى .. لا حركة ولا نحنحة.

قامت وفاء من مكانها في المقعد الموجود في غرفته واقتربت من سريره .. مسحت بيدها على جبينه وقبّلته فشعرت بتلك الحرارة التي تنهش جسده فنظرت إليه بعينين يملأهما الحزن ثم تحسست بطنها بيدها وسرحت بخيالها وهي تقول في ألم: "آه يا أمين .. لقد رفضت الفكرة من مبدأها لأن إحساسي لا يخطئ .. آه يا حبيبي أيريد الموت أن يأخذك مني ولم يمضِ على زواجنا سوى عام وبعض العام ؟! كنت قادمة تلك الليلة ومعي خبر سار ... أجل لقد كنت أريد أن أرى الفرحة في عينيك بقدوم ابننا الأول ... لقد حققت لك حلمك بأن تكون أبا .. لقد صرتُ أما وصرتَ أنت أبا .. أعرف أنني أثقلت كاهلك بضجيجي لكن قلبي امتلأ حزنا وقسرا وصار يجب أن أفرغه ... إسعادك كان غايتي التي ما فتئت تتبعني منذ أول مرة وقعت فيها عليك عيناي ... أنا حبك يا أمين فلا تتركني .. أرجوك لا تتركني .. أرجوك لا تتركني." وظلت تردد هذا القول وارتمت عليه تغمره بدموعها ولم تفق إلا وصوت الممرضة يناديها ويلح عليها لتتركه يستريح فقامت من فوقه وأمسكت يده وظلت كذلك

إلى أن همت بالخروج فلم تشعر إلاّ وأمين يضغط على يدها بقوة فاتسعت عيناها من هول المفاجأة وكاد يغمى عليها من شدة الفرح وبادرت بمناداة الطبيب قائلة: "يا دكتور يا دكتور لقد أفاق لقد أمسك بيدي للتو." فقام الطبيب بمعاينته وقال في دهشة: "فعلا لقد ذهبت الغيبوبة عنه ... لا أصدق أنها ذهبت بهذه السهولة ... صارت حالته مستقرة والحمد لله."

فرددت وفاء: "الحمد لله .. الحمد لله."

مات أمين ... فليحيا أمين

ونهض أمين بعد أيام سليما معافى كما كان غير أنه كان يحس أحيانا بوخزات في قلبه وأعلمته وفاء بخبر حملها فكاد يطير فرحا وصار كل يوم يعود باكرا ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها وظلوا هكذا مدة تناهز الثلاثة أشهر فقد خلالها أمين الشهية للأكل وحاولت وفاء إطعامه لكنه كان يرفض.

واقترب موعد وضع الرضيع فأخذت وفاء تقوم بالإجراءات اللازمة لدخول المستشفى .. وفي يوم من الأيام أحست وفاء بألم شديد يتملكها ولم تستطع أن تكتم الصرخة التي بداخلها فسمعها أمين وقدم مسرعا نحوها وقال لها: "ما بك يا حبيبتي ؟ أيؤلمك شيء ما ؟" فأجابته بصعوبة: "إنه المخاض يا أمين ... يجب أن نذهب إلى المستشفى حالا."

فأسرع إلى السيارة وشغلها ثم عاد إلى المنزل ليساعد وفاء في نزول الدرج ثم انطلق رأسا إلى المستشفى وما هي إلا لحظات حتى كان أمامها فنزل وحاول إنزال وفاء من السيارة لكن قلبه لم يمهله فسقط مغشيا عليه .. صرخت وفاء من ألم الوقعة فخرج ممرضان لاستجلاء الأمر فوجدوا أمين مغشيا عليه ووفاء فوق الأرض تتأوه من شدة الألم فأحضرا نقالة حملت

أمين وواحدة مثلها لوفاء وفي بضع دقائق كان أمين في غرفة العناية المشددة وكانت وفاء في غرفة العمليات .. تم كل شيء سريعا ... كأنما هو حلم.

ومرت الليلة هادئة ومن الغد قامت وفاء وأفاقت من غيبوبتها .. تحركت فتألمت عندها علمت أن العملية قد تمت .. نظرت تبحث عن ابنها التي اختارت له من الأسماء (ياسين) لكنها لم تجد ما يوحي بأنه موجود فنادت الممرضة قائلة: "يا آنسة هل لي برضيعي لأراه ؟"

"لا تقلقي إنك في غرفة قريبة من العشرات مثله .. هههههه سآتي به حالا .. ما شاء الله ... إنه شبه والده بالضبط."

عندها تذكرت ما حصل لأمين فاستفسرت عنه الممرضة: "البارحة كان معي زوجي .. هل هو بخير ؟"

"زوجك ؟!! لم أره معك البارحة .... على كل لقد تفطنت لرجل أحضرك البارحة في سيارته ... ذاك المسكين لم تترك له تلك الأزمة أي أمل .. صدقيني عندما أطلق طفلك بكاءه لأول مرة لفظ المسكين أنفاسه الأخيرة."

"ذاك هو زوجي." ثم أجهشت بالبكاء ... عندها قالت الممرضة مستغربة:" أهو حقا زوجك ؟! سبحان الله بين صورته في الوثائق الرسمية التي قدمتها للمستشفى وذلك الرجل القابع في غرفة الأموات الآن ... تبا لهذا المرض الذي جعله يتغير بهذه الدرجة."

فازدادت وفاء بكاء حتى أغمي عليها من جديد .... عندما أفاقت كانت إحدى الممرضات تمسك بطفل صغير بهي الطلعة أزرق العينين وتقدمه لها فأخذته من بين يديها وتأملته جيدا .. لقد كان كل شيء فيه يشبه والده ما عدا عينيه ... فقد كان شعره مائلا للاصفرار وأنفه دقيق وأذناه صغيرتان .. فكرها منظره بوالده واغرورقت عيناها بالدموع.

وعندما سألتها الممرضة عن الاسم الذي اختارته لمولودها .. قالت دون أن تزيح عنه عيناها: "أمين .... سأسميه أمين."

تمت والحمد للّه

طبرقة في الخامس من جوان خمس عشرة وألفين